رأي القدس

قضية النقاب واسباب افتعالها

■ تواصلت تداعيات قضية النقاب والمنقبات في بريطانيا، ولا يمر يوم دون حدوث تطور جديد يؤدي الى صب المزيد من الزيت على نيران الحملة التحريضية التي يتعرض لها المسلمون، خاصة من قبل الصحافة الشعبية (التابلويد) ذات الميول اليمينية المعروفة.

بالامس اعرب الوزير البريطاني المختص بشؤون العلاقات بين الجاليات عن اعتقاده بضرورة طرد المدرسة البريطانية المنقبة التي اوقفت عن العمل في احدى المدارس بسبب رفضها نزع نقابها.

وظهرت مقالات عديدة في الصحف يوم امس الاحد تؤيد وجهة النظر هذه، وتطالب باجراءات صارمة ضد المسلمين ومدارسهم من اصحاب الميول المتطرفة، مثلما ظهرت مقالات اخرى، وان بدرجة اقل تعارض هذا الاسلوب المتشدد، وترى في الهجمة على النقاب تعريضا بالحريات الشخصية والحقوق المدنية للمواطنين التي يكفلها الدستور.

عدد السيدات المنقبات في قطاع التعليم محدود جدا، ولا يستحق في حد ذاته كل هذه الضجة لما يمكن ان تسببه من اضرار على الجالية الاسلامية والسلام الاجتماعي، في بلد ما زال يعيش آثار تفجيرات السابع من يوليو (تموز) عام 2005.

الذين يعارضون ارتداء مدرسات اسلاميات للنقاب في المدارس يجادلون بان هؤلاء لا يمكن ان يمارسن عملهن بشكل مهني حقيقي، وايصال المعلومات بفاعلية الى تلاميذهن وهن يغطين وجوههن بالكامل، ويضربون مثلا بتعليم اللغات الذي يتطلب متابعة التلميذ او التلميذة لحركة وجه المدرسة وفمها ولسانها وهي تنطق الكلمات.

وهؤلاء يملكون وجهة نظر تنطوي على الكثير من الصحة، ولكنها شهادة حق اريد بها باطل في معظم الاحيان، لان نسبة كبيرة من هؤلاء يملكون مواقف مسبقة من الاسلام والمسلمين، ويبحثون عن الاعذار لتبريرها.

منذ تفجيرات الحادي عشر من ايلول (سبتمبر) عام 2001 والجاليات الاسلامية في الغرب تواجه ظروفا معيشية صعبة للغاية، وازدادت الامور صعوبة في بلد مثل بريطانيا بعد ان نفذ اربعة شبان مسلمين تفجيرات في مترو انفاق لندن ادت الى مقتل ستين بريطانيا على الاقل.

توني بلير رئيس وزراء بريطانيا كان اقوى الاصوات في التحريض على الجالية الاسلامية عندما شكك بطريقة غير مباشرة في ولائها لبريطانيا وطالب الاباء بالتجسس على ابنائهم لمعرفة نواياهم المتطرفة قبل اقدامهم على اي عمل ارهابي، وابلاغ الاجهزة الامنية عنهم.

فرئيس الوزراء البريطاني واجهزة الاعلام المؤيدة له، لا تريد ان تعترف بان الحماس البريطاني الزائد عن الحد في تبني الحروب الامريكية في العراق وافغانستان، ومساندة العدوان الاسرائيلي على الفلسطينيين واللبنانيين، وقرع طبول الحرب ضد ايران كلها عوامل تؤدي الى تهديد امن بريطانيا ومواطنيها واستقرارها، ولذلك يحاولون ان يحولوا الانظار عن هذه الحقائق بتكريس الاتهامات للجالية الاسلامية وحشد الرأي العام البريطاني ضدها وضد الاسلام بشكل عام باعتباره مصدر كل الشرور.

الحملة على النقاب هي جزء من حالة العصاب او «الاسلاموفوبيا» ضد الاسلام والمسلمين لتبرير سياسات وحروب غربية غير اخلاقية وغير شرعية في العراق وافغانستان وفلسطين.

سباق الجمهوريين والديمقراطيين على طهران النووية

محمد صادق الحسيني

■ رغم اختطاف الحدث الكوري الانظار عن الملف النووي الايراني الا ان ثمة مياهاً جديدة جرت في نهر العلاقات الامريكية ـ الايرانية قد تدفع بهذا الملف لان يطفو في الاسابيع القليلة القادمة الى السطح بقوة من جديد!

فقد قررت الادارة الامريكية في سابقة هي الاولى من نوعها في تاريخ العلاقة بين واشنطن والنظام الاسلامي في ايران، ان تفرج عن حظر دام نحو 27 عاما على قطع غيار ظلت طهران بحاجة ماسة لها في تجديد اسطولها الجوي المدني.

ان تستطيع طهران شراء قطع غيار لطائرات الايرباص سيعني تحولا نفسيا وفنيا مهما في البنية الاقتصادية الايرانية الخارجية، لان هذا سيعني لها فتح الباب واسعا امام تحديث اسطولها الجوي اولا، والدفع بسياسة احمدي نجاد الصارمة والحازمة الى مزيد من الالتفاف الشعبي ثانيا والى فتح باب المناورة في خياراته الاقتصادية الخارجية ثالثا، وهو ما سيدفع بالتأكيد باحتمالات فتح ثغرة في جدار العلاقات الايرانية ـ الامريكية الذي ظل اصم من جانب واشنطن!

على المدى القريب جدا سيخرج غوست طائرات ايرباص ايرانية كانت قد اشترتها طهران من انقرة حديثا وظلت جاثية في المخازن دون استعمال لانها مستعملة وبحاجة الى تغيير قطع غيار اساسية فيها قبل استعمالها.

انها اذن علامة حسن نية بارزة ترسلها واشنطن الى طهران، وقد تكون دفعا مهما للغاية لسياسة ابقاء باب الحوار الاوروبي البناء مع العاصمة الايرانية حتى لا تذهب بعيدا باتجاه الخيار الكوري على الاقل!

لا احد يعرف بالضبط ان كانت هذه الخطوة ناتجة عن قناعة لدى الجمهوريين بفشل سياسة التعنت والصلف القديمتين تجاه ايران ام عن ضعف وهوان امام صلابة الموقف الايراني لا سيما في ظل الاخفاقات الامريكية المتتالية في العراق ولبنان وافغانستان وعلاقة تلك الاخفاقات في تحسين اوراق اللعبة الايرانية؟!

لكن الجديد الملفت ايضا هو ذلك السباق الفجائي بين قنوات الحوار الديمقراطية والجمهورية التي ظلت مفتوحة وان على خجل حتى الان مع الايرانيين.

فالناطق الرسمي الاسبق لوزارة الخارجية الامريكية جيمس روبين كان في طهران قبل ايام وهو ديمقراطي وعلى الرغم مما خرج من تفسيرات هنا حول كون الزيارة ذات طابع عائلي! كون الاخير متزوج من الصحافية المعروفة الشيرازية الاصل كريستيان امافيور، الا ان ذلك ليس مقنعا كثيرا في ظل بعض المعطيات الايرانية والامريكية!

فامانيور معروفة في اتصالاتها المستمرة مع الاطراف الايرانية المختلفة، وهي التي اشتهرت في نيلها الحديث الصحافي الذي تتمناه مع القادة الايرانيين وثمة انباء راجت في فترة متأخرة من ان الرئيس السابق محمد خاتمي والذي زار واشنطن مؤخرا يفكر بجد في فتح صفحة جديدة لصالح بلاده مع الامريكيين وقد تنطلق مكاتبات له في اية لحظة مع نظيره الامريكي بيل كلينتون، وهو ما من شأنه ان يكسر حدة الغضاء النفسي بين البلدين، فضلا عن امكانية لعبه لدور اقوى من ذلك لا سيما مع احتمالات نجاح الديمقراطيين في السيطرة على احد مجلسي الكونغرس ان لم يكن كليهما!

من جهتها فان القنوات الجمهورية السرية والعلنية سواء تلك التي تستخدم قناة السفارة السويسرية في طهران ـ راعية المصالح الامريكية هنا ـ او تلك التي تستخدم قناة الامم المتحدة او تلك المفتوحة حديثا عبر كبير المفاوضين الايرانيين في الملف النووي علي لاريجاني، باتت اكثر حرارة وحيوية في الاونة الاخيرة.

والمعروف في هذا الاتجاه انه وبالاضافة الى الضوء الاخضر المعطى لمحمد جواد ظريف (مندوب ايران الدائم في الامم المتحدة) لفتح القنوات المناسبة مع الامريكيين فان لاريجاني قد اخذ الضوء نفسه ومن اعلى مقام في القيادة الايرانية كما هو الحال مع ظريف! هذا ناهيك عن الاطراف الاقليمية المختلفة التي تتحرك دون توقف في الاتجاهين!

نخلص مما سبق الى ان طهران قطعت شوطا كبيرا في مشروع وضع الامريكيين في خانة القناعة المطلوبة للتعايش مع ايران دولة نووية حتى وان كانت محض سلمية، وبالتالي الاعتراف والاقرار بالنظام الايراني الحالي كخيار ايراني داخلي لا ينبغي للولايات المتحدة الامريكية ان تفكر في زعزعته فضلا عن الاطاحة به ان كانت تفكر بعمق في مصالحها الحيوية في المنطقة.

ومن هنا فان الخبراء المتابعين لهذا الشأن باتوا على قناعة بان مسألة الخيار العسكري ضد طهران بات امرا شبه مستحيل من جانب واشنطن لا سيما بعد تجربة الحرب السادسة الاسرائيلية العربية والتي خاضها الامريكيون والاسرائيليون ضد لبنان وحليف طهران الاستراتيجي ـ حزب الله ـ والتي سماها الاسرائيليون بالمناسبة الحرب الاولى ضد ايران!

لكن ذلك لا يعني نهاية المطاف وان كل شيء على ما يرام! ابدا، فالاطراف جميعا لا تزال ايديها على الزناد، خاصة الطرف الاسرائيلي الذي لا يزال يلح على تجربة الخيار العسكري المباشر مع طهران كحد ادنى ضرب بعض المنشآت الحيوية وخاصة النووية منها بطريقة الضربة الجوية الخاطفة، لكن ذلك سيكون من نوع المقامرة هذه المرة وليس المغامرة فقط!

بالمقابل فان ثمة متطرفين مسيحيين امريكيين متصهينين يقرأون في اذن بوش ـ ان كانت له اذان يسمع بها اصلا ـ بان طريق التفاهم فضلا عن التطبيع مع طهران ـ هو ايضا نوع من المقامرة الخطيرة، لان طهران مصممة على تدمير اسرائيل وكسر شوكة امريكا في العراق وافغانستان ولبنان!

بين «المقامرتين» تبقى ايران صاحبة الاوراق الاقوى ولسان حالها يقول: «اعمل للحوار مع واشنطن كأنه باق ابدا واستعد للحرب معها كأنها واقعة غدا».

بعض الأسئلة العربية حول:

التباسات الأدوار الإيرانية بين العراق ولبنان

مطاع صفدي *

■ بقدر ما يمكن القول إن المقاومة في لبنان استطاعت أن توظف الدعم الإيراني لها وفق أفضل الشروط الممكنة لاستثماره في صالح أدائه العسكري الذي هزم مخطط الاجتياح الصهيو–أمريكي، بدءاً من التمويل الى التنظيم والتسليح والتغطية السياسية، إلا أن الاحتلال الأمريكي للعراق، قد استثمر التدخل الإيراني ونفوذه الشعبي المذهبي، لهدف تدمير الدولة، وتفكيك مكونات مجتمعها، والشروع المتمادي في التقسيم البنيوي، وجعله كما لو كان هو الحل المحتوم لمستنقع التذابح المذهبي، رغم كون هذا الحل هو بمثابة الكارثة العظمى على القطرين معاً العراق وإيران، وسوف يزعزع ولا شك من خارطة العالمين العربي والاسلامي، من عمق المشرق إلى أقصى المغرب. إنه ذلك التقسيم الذي لن يولد دويلات مستقرة داخلياً، أو متصالحة فيما بينها، بقدر ما سوف ينقل كل أسباب الصراعات والحروب من يد الخارج الأجنبي، مريحاً إياه من افتعالها بمؤامراته أو جيوشه، ليسلمها الى شبكة الكيانات الصغيرة والهشة، التي ستتوالد كالفطر في أصقاع هذه الجغرافية المنكوبة. ستغدو فتن التذابح المتبادل هي القانون الأعلى المتحكم في بقية العلاقات الدولية المشوهة بين هذه الكيانات.

ما كان عائداً إلى تاريخ الحروب الاستعمارية عبر مراحلها القديمة والمستحدثة، سيصير إلى مسلسلات من المجازر الإقليمية الناجمة عن أسبابها الذاتية، حتى بدون التدخلات المعتادة من قوى الغرب، وآخرها أمريكا وإسرائيل. حتى انه يمكن أن يتصور المرء أن جلاء الاحتلال الأمريكي عن العراق، سيكون مرتهناً بفرص حقائق التفتيت المستحدث على أرض الواقع، والاطمئنان إلى أن مستقبل العراق سيكون أسوأ بعد الاحتلال بألف مرة مما كان في أيامه، ولن يكون ـ هذا المستقبل ـ مقتصراً عليه وحده. سيشمل أوسع محيط حوله. ذلك أن قصور (النهضة) المغدورة بيد أبنائها أولاً، مبنية من القش أو منتهية إليه، فهي إذن بانتظار الشرارة التي ستأكلها عن بكرة أبيها.

النقاش مستمر في دوائر السياسة والفكر حول الالتباسات الإيرانية. فإذا ما تراجعت نسبياً تلك الحوارات الشاقة حول التعارض الأيديولوجي ما بين الطبيعة الفوقية والمحافظة التقليدية للدين، وما يُفهم من (تقدمية) الثورة ومحاربة الاستعمار عادة، إلا أن الممارسة السياسية للنظام الإيراني ما بين العراق ولبنان، في وجهيها المتنافرين، كما تبدو معالمها للمواطن العربي العادي، تجعله لا يدري كيف يوفق بين تحبيذه لواقع الدعم الإيراني للمقاومة اللبنانية، الذي ساهم في صمودها ضد العدوان الأخير، والمزدوج لكل من واشنطن وتل أبيب، و بين استنكاره في الوقت عينه لهذا النوع المستهجن من إصرار بعض القادة المذهبيين الموالين علناً لإيران، في النجف وبغداد، على شرعنة الفدرالية في دستور الحكم الحالي للعراق، والدفع اليومي نحو انفصالية ثلثي العراق، وتجسيدها على الأرض، وفرضها على الأكثرية الصامتة، المعارضة من دون أدنى شك لشرذمة البلد، بما في هذه الأكثرية من مختلف الطوائف والمذاهب. خاصة وأن هذا التمزيق العضوي غير المسبوق حتى في أظلم حقب التاريخ العربي والاسلامي، إنما يتناول الأكثرية العربية نفسها المؤسسة للكيان العراقي والحارسة له منذ مئات السنين.

بالمقابل، وعلى الصعيد الأشمل، لا يمكن لعاقل أن يرفض هذا التحالف الموضوعي لكلا المانعتين العربية والإيرانية ضد الهجمة الأمريكية الاسرائيلية على كامل المنطقة. بل ثمة طموح حقيقي لدى الرأي العام العربي لترجمة ذلك التحالف إلى انفتاح ذاتي واع وإرادي، بين العرب وقارتهم الاسلامية من حولهم، وبدءاً من أقرب الأقطار إليهم، إيران وتركيا. فإنه فضلاً عن التاريخ المديد الذي جمع بين هذه الشعوب في ظل الحضارة المشتركة بين مكوناتها العرقية المختلفة، والاسم العربي الاسلامي الذي شملها جميعاً بين العالمين، فضلاً عن ذلك كله تتضافر عوامل جيوسياسية على جانب عظيم من الأهمية في هذه الحقبة الراهنة والمفروضة بفعل منطق (صراع الحضارات) الذي تمارسه الأمركة الصهيونية، بأشرس وسائل الإبادة المادية الموجهة ضد مجرد وجود الشعوب نفسها، أو لثقافاتها، أو لأبسط معاني استقلالاتها الوطنية.

فما ينتظره المثقفون العرب من هذه السجالات هو تغليب ثقافة الممانعة الوطنية المنفتحة على بعضها بين مختلف أقطار المشرق، على نشر وباء التفرقة العنصرية تحت غطاء كثيف من إيديولوجيا لا تكاد تخفي انبعاثاً لعقد الشعوبية التاريخية التي فتكت ببنية الوحدة السياسية والثقافية للحضارة الاسلامية وهي في أوج تألقها وازدهارها إبان العصر العباسي. فلا شيء اليوم أخطر من سيادة المنطق المذهبي ودعمه بتفتيت (مشرعن) لكيان واحدة من أكبر دول الحاضر العربي وماضيه، وأهمها تأثراً وتأثيراً بتحولات المصير العام لكل دول المنطقة.

إن مَذْهَبة الصراع السياسي، واختلاف محاور التحشيد النفسي والإعلامي على أساس ذلك الافتراض البغيض، كما لو كان التمذهب أمسى واقعاً شعبياً، وأنه بالتالي لا مفر من إعادة تشكيل خارطة العراق، وبعده كل المنطقة من حوله بحسب مقتضياته، هذه المَذْهَبة ولا شك هي ذروة الحكم الأمريكي الصهيوني، في تجذير التفتيت وجعله كما لو كان فعالية ذاتية لواقع الحراك الاجتماعي وليس مجرد مخطط خبيث لقوى خارجية قاهرة. وهنا مركز الخطورة الكبرى في هذا الالتباس بين نهج التحريض المذهبي الفئوي، وبين ضرورات التوحيد المجتمعي وتحشيد قواه على اختلافها وراء أهداف استعادة الاستقلال، بتعزيز اللحمة الطبيعية بين المواطنين جميعاً. وبالأمس فقط كان لافتاً في خطاب خامنئي مرشد الثورة الإيرانية أنه كان موجهاً، وباللغة العربية، إلى الملأ العربي والاسلامي الأوسع، من منطق التنديد بمخطط الفتن المذهبية والقومية التي يقودها الثنائي الأمريكي–الإسرائيلي وحلفاؤه الإقليميون. لكنه كان لافتاً كذلك أنه في الوقت الذي عبر الخطاب بوضوح جلي عن رفضه لتجزئة العراق، فإنه لم يشر من قريب أو بعيد إلى كون مخطط الفدرالية قد شرعن تطبيقه المجلس النيابي بأصوات أحزاب الائتلاف الشيعي ما عدا بعضها، المحسوبة بقياداتها وتوجهاتها وممارساتها منذ وقوع الغزو الأمريكي، على الجانب الإيراني، فالتقسيم أمسى قيد التنفيذ المشرعن، وأصحابه الرئيسيون هم رجال إيران أنفسهم في العراق المنكوب.

هل هذا يعني أن هناك أجنحة متعارضة في قمة الحكم والمؤسسة المذهبية. وإذا لم يكن الأمر كذلك فهل تبرئ سلطةُ المرشد الأعلى دولتها إيران من مسؤولية هذه النكبة التي يُدفع إليها العراق دفعاً، و(بفضل) هذه القوى نفسها الممثلة للنفوذ الإيراني. فإذا ما تحقق هذا الحلم الأمريكي الصهيوني، وتم الإعلان (الدستوري)، عن انفصالية الساحة العربية الشيعية عن بقية الجسد العراقي، كيف يمكن لإيران التنصل من مسؤولية هذه النكبة الثانية، بعد نكبة زرع إسرائيل، وربما ستكون هي الأخطر، إذ سوف يتفكك كيان المشرق بكامله. ولن تنجو حتى إيران، وتركيا كذلك، من هذا المصير الأسود: إسرائيل سجلت ضياع فلسطين مرة. وتمزيق العراق سوف يسجل ضياع المشرق بكامله. فهل هذا حقاً هو ما تريده إيران. أم أنها ستحاول أن تعيد قراءة رموز المنطقة على ضوء معاني الإنجاز اللبناني، الذي فهمه واستوعبه الشارع العربي والاسلامي من أقصاه إلى أقصاه. فتدرك بكل بساطة أن هذا الشارع إنما (تشيّع) لقيم التحرر والصمود التي حققها (حزب الله) في دفاعه البطولي عن لبنان وأمته، ولم يتشيع لأية مذهبية أو فئوية، أو أية (شعوبية) مستحدثة. فإذا كانت إيران تتطلع فعلاً إلى عالم عربي متضامن معها، وخاصة في صراعها الراهن ضد الهجمة الأمريكية عليها بحجة السلاح النووي، فإن عليها أن تقدم البرهان الذي تقدر عليه وحدها، فتعمل على إنقاذ وحدة العراق، بلجم حلفائها الانفصاليين والتوقف عن هذا الانسياق الهمجي في تنفيذ التقسيم، الذي هو صلب المشروع الأمريكي وأعلى ثمرات غزوه. فالجبهة العراقية لا تقل حساسية وتأثيراً مصيرياً على الجميع، عن جبهة الصراع في لبنان وعليه. لن ينجو لبنان، ولا سورية معه أو بعده، من خطر التمزيق العضوي الذي كافحه طيلة خمسة عشر عاماً من كل أشكال الحروب الأهلية، إذا ما وقع يوماً ما تمزيق العراق.

إيران تملك المبادرة الإستراتيجية، والمحكّ يبدأ من تصحيح دورها المركزي في العراق. إنه المفصل الوحيد نحو ترسيخ أسس المصالحة الأهلية مع محيطها العربي وبما يؤسس لأفضل مناعة بنيوية ذاتية ضد أية اختراقات يعدّها المشروع الشرق الأوسطي؛ إنها المصالحة الأهلية التي ستبطل أية ركيزة موضوعية لقيام سياسة المحاور الدولية، المعوّل عليها أمريكياً إسرائيلياً كمقدمة لكل الفتن الفئوية القادمة.

ذلك هو أحد أعمق الدروس المستفادة عربياً إسلامياً من الإنجاز اللبناني المقاوم. ولعل المرشد خامنئي يخط طريق الرشاد الحقيقي لدولته انطلاقاً من بدهيات هذا الإنجاز الاستراتيجي الفريد، ومن دوره الحاسم على مجريات الحدث العراقي والعربي عامة.

* مفكر عربي مقيم في باريس

من لفتح فينقذها؟

د. عزام التميمي *

■ على هامش إحدى ورشات عمل المؤتمر السنوي للجمعية اليابانية للعلاقات الدولية المنعقد في طوكيو من 13 إلى 15 تشرين الأول (أكتوبر) همس بأذني أحد الأساتذة اليابانيين المشاركين: «ما الذي جرى لحركة التحرير الوطني الفلسطيني؟» وقبل أن أبادره بأية إجابة أضاف «هل يعقل أن ينتهي المطاف بحركة فتح التي بهرتنا بتحديها للعالم وإصرارها على الحق الفلسطيني منذ أواسط الستينيات أن تتحول إلى أداة لتمرير الإرادة الأمريكية والإسرائيلية على الفلسطينيين؟ أيعقل أن تصر قيادة فتح على ألا مخرج من الأزمة إلا بأن تعترف حماس بإسرائيل؟».

أدركت بأن الأستاذ الياباني لم يكن يبحث عن إجابة بقدر ما كان يعبر عن أسف وأسى وحسرة، بل واستهجان لما يسمع ويرى من أحداث على الساحة الفلسطينية.

لئن كان الفلسطينيون والعرب يعانون من الصدمة بسبب حدة زاوية الانحراف التي تساق إليها فتح يوماً بعد يوم فإن الصدمة أشد هولاً وأعظم وقعاً على مناصري القضية الفلسطينية من خارج العالم العربي، أولئك الذين ما عرفوا القضية واعتقدوا بعدالتها والتزموا بدعمها إلا من خلال نموذج النضال الذي قدمته حركة فتح في العقدين الأولين على الأقل من عمرها، والذين كانوا يرون فيها ـ واليساريون منهم بالذات ـ رداً شرعياً على الغطرسة الإمبريالية يتساوى في أصالته ونبله مع المشاريع النضالية الأخرى التي تعلقوا بها ودعموها سواء في فيتنام أو في جنوب أفريقيا أو في أمريكا اللاتينية.

يصعب على المراقب للشأن الفلسطيني ـ سواء قرب أم بعد ـ أن يستوعب ما يجري لحركة فتح التي قدمت الآلاف من الشهداء والجرحى والأسرى، والتي قضى معظم قادتها من الرعيل الأول نحبهم غدراً بأيدي صهيونية أو عميلة للصهيونية، تلك الحركة التي كنت وأقراني في الثانوية العامة في أوائل السبعينيات نتغنى بأناشيدها الوطنية الجميلة من مثل: «أنا ابن فتح ما هتفت لغيرها» ومن مثل: «لن نركع، لن نركع». لكم كنا نسهر للدراسة ليلاً لا يسامرنا سوى «صوت فلسطين» تنبعث منه هذه الأغاني الحماسية وغيرها، تطربنا كما يطربنا ما كنا نسمعه من البيانات العسكرية والرسائل المشفرة الموجهة إلى الفدائيين في الداخل الفلسطيني المحتل.

كانت فتح حينها نبض قلوبنا، وأمل عمرنا في التحرير والعودة. كانت فتح وطننا إلى أن يعود الوطن، وحلمنا الدائم سواء غفونا أو صحونا. إلا أن الحلم سرعان ما بدأ يتبدد حينما لم يعد زعماء حركة فتح يرون إمكانية الاستمرار في تحدي العالم بأسره بالإصرار على حقوقنا غير منقوصة، وخاصة بعد أن ضربت المقاومة في الأردن، ولاحقتها الضربات في لبنان، وتكالب عليها الخصوم من كل جانب، فانتهج بعض قادة فتح نهجاً براغماتياً تمثل بالنقاط العشر التي بدأ الحديث عنها في أواسط السبعينيات وتم تبنيها في غفلة من أبناء الحركة وقواعدها رسمياً في أوائل الثمانينيات، مما مهد فيما بعد لسياسة التسليم بالأمر الواقع، والرضوخ لما تقرره «الشرعية الدولية»، والقبول بما يمكن أن يجود به النظام العالمي الجائر، وما قد يسمح به النظام العربي الفاقد للإرادة والمشلول عن المبادرة.

رغم الانشقاقات، ظلت فتح إلى حد كبير متماسكة، ولم يهجرها الكثيرون من منتسبيها، ولم يعدم من أبنائها من تجاوز طموحه الأهداف الجديدة للقيادة السياسية الوسيلة لممارسة النضال ومقارعة الأعداء على أرض فلسطين. وكانت القيادة السياسية من الحنكة والفطنة بأن استثمرت ذلك كله ولم تسع لوأده. إلا أن الأعداء كانوا لمناضلي الحركة بالمرصاد، فاغتالوا رؤوسهم، وصفدوا في المعتقلات المئات تلو المئات منهم، وتوالت الضغوط على القيادة السياسية تارة بالترغيب وأخرى بالترهيب إلى أن جاءت طامة مدريد ومن بعدها كارثة أوسلو، فتحولت فتح إلى سلطة مهمتها في الظاهر ترتيب البيت الفلسطيني في الداخل تمهيداً لقيام الدولة، وفي الباطن توفير الأمن للإسرائيليين أملاً ـ إن رضوا عنها وأعجبتهم إنجازاتها ـ في منحها ما يرونه مناسباً من التنازلات، وحينما يروق لهم لا حينما تطلب هي أو تشتهي.

كانت سنوات التفاوض بعد توقيع أوسلو محطات تحولية جرى في كل واحدة منها تفريغ حركة فتح من قدر ما من مضمونها النضالي، وفي سبيل تحقيق ذلك مكن الأمريكان والإسرائيليون لنفر من الوصوليين من التحكم بمفاصل الحركة، دربوهم على البطش بأبناء قومهم وأغروهم بتقديم مصالح الصهاينة على كل مصلحة وطنية بعد أن ربطت مصالحهم الشخصية بتلك المصالح الصهيونية، فأضحت خدمة المشروع الصهيوني وسيلة للحفاظ على المكاسب وسعياً حثيثاً في سبيل الاستزادة منها، ولو كان لابن آدم واديان من ذهب لابتغى لهما ثالثاً.

وحينما بدأت تطفو على السطح بوادر خلافات بين هذا النفر الذي صنعه الصهاينة والأمريكان على أعينهم وبين القيادة التاريخية المتمثلة بالراحل ياسر عرفات، نفض الأمريكان والإسرائيليون أيديهم تماماً من شريكهم في صنع السلام بعد أن أفقدوه الأمل في تحقيق أي سلام، فحاصروه، ثم دسوا له السم في لحظة غفلة من مقربيه، ولعل بعضهم كان وسيلتهم للوصول إليه والإجهاز عليه، ولعل الأيام تبدي ما لا يزال عنا خافيا.

كان ينبغي على أبناء فتح الشرفاء أن يلاحظوا آنذاك ما كان يحاك بهم ويمكر لهم، وكان ينبغي عليهم أن يتحركوا لإنقاذ مشروعهم، مشروع شعبهم النضالي، من براثن الوصوليين والمتسلقين. ولكن، يبدو أن النعرة الحزبية والانتماء «القبلي» غلبا على الحس الوطني في لحظة غفلة، فاستمر المتآمرون على فتح في غيهم، وانتهى بهم المطاف الآن أن قبلوا بدور الوكيل عن أمريكا وإسرائيل في إجهاض المشروع الجهادي برمته. فلولا هؤلاء الشرذمة لما نجح الحصار على الشعب الفلسطيني ولما تمكنت القوى الدولية من إدامة العقوبات أسابيع ناهيك عن أن تستمر بها لشهور. لم يعد يخجل أحد من أولئك الذين انحرفوا بفتح عن مسارها النضالي أن يعلن على الملأ بأنه لا خلاص للشعب من محنته ولا مخرج له من الحصار والعقوبات إلا بأن ترضخ حكومته المنتخبة للشروط الإسرائيلية الأمريكية كما وردت من المصدر. ولم يعد يتورع أحد منهم في أن يحرض بعض منتسبي فتح ـ ويشك المرء في صحة نسبتهم إليها ـ للخروج على النظام العام إطلاقاً للرصاص وتدميراً للمؤسسات وإغلاقاً بقوة السلاح للمدارس ومراكز الخدمات في وقت أحوج ما يكون الشعب المحاصر إليها جميعاً.

إن ما يجري الآن في الساحة الفلسطينية من محاولات لزج المجتمع الفلسطيني في حالة احتراب داخلي ينبغي أن ينبه أبناء فتح الوطنيين، وهم الأكثر سواداً والأكبر عدداً داخل الحركة، إلى ما آلت إليه حركتهم في ظل سطوة نفر لا ينتمون للأمة ولا يريدون بها خيراً. لقد آن الأوان ليتحرك أبناء فتح لإنقاذ حركتهم، ومجتمعهم، وقضيتهم من براثن من يعيثون في الأرض الفساد، على هؤلاء لا على حكومة الشعب المنتخبة ينبغي أن يكون التمرد والانقلاب.

في ظرف حالك السواد، يستبشر المرء خيراً بلقاء فاروق القدومي في دمشق بقادة الفصائل الفلسطينية وعلى رأسها حماس، فهذا التحرك ـ رغم تأخره ـ مطلوب لسحب البساط من تحت أرجل من أصبحت مرجعيتهم تل أبيب وكعبتهم واشنطن، ومن شجع ضلوعهم في المؤامرة على الشعب أنظمة عربية مجاورة على أن تشارك بكل ما أوتيت من موارد في حجب العون عن الشعب المحاصر وهو في أمس الحاجة إلى العون، وذلك بدلاً من أن تتحدى الظلم الأمريكي وتفرض فك الحصار بالصمود وتعمل على إفشال العقوبات الجماعية بالتضامن.

لم يعد مقبولاً من أبناء فتح أن يظلوا متفرجين بينما يتآمر نفر من المتسلقين عليهم وعلى حركتهم وعلى شعبهم، ولم يعد مقبولاً أن تنطلي على أبناء فتح أكاذيب هؤلاء وأراجيفهم، كما لو كانت القضية تنافساً على مكاسب أو صراعاً على السلطة بين فتح وحماس. ليست الأزمة بسبب خلاف على صلاحيات أو مناصب أو حتى اجتهادات في الإدارة أو السياسة، بل تكمن المشكلة الحقيقية في رغبة النظام الدولي بقيادة الولايات المتحدة الأمريكية إجبار الشعب الفلسطيني على التنازل عن حقوقه التاريخية مقابل كسرة من خبز يمن بها هؤلاء عليه، وما كان لهم حق في أن يمنعوها عنه أصلاً، كما تكمن في تجنيد أمريكا وإسرائيل لزعماء بارزين في حركة فتح رضوا لأنفسهم بأن يقوموا نيابة عنها بأقذر الأدوار، الأمر الذي يحتم على كل فتحاوي أصيل أن ينأى بنفسه عنهم، بل وأحرى به أن يتبرأ بسببه منهم.

ليست فلسطين ملكاً لحماس دون غيرها، وليست القضية حكراً على فتح دون سواها، بل هي قضية أمة بأسرها، من تخلى منها عنها خسر وخاب، ومن تصدى دفاعاً عنها وجهاداً في سبيلها أياً كان فصيله أفلح وطاب.

لقد آن الأوان لأن تتحرك جموع فتح لتنقذ حركة التحرير الوطني فتستعيدها ممن تسلطوا عليها ولتعيد إليها الاعتبار كحركة مناضلة مجاهدة لا تتنازل عن حبة تراب من الوطن السليب ولا تتراجع عن عهد قطعته للشعب على نفسها مهما اشتدت الضغوط وتعاظمت المكائد. ولا يكون ذلك إلا بأن تبادر قواعد فتح المخلصة لشعبها وقضيته العادلة برفع الغطاء عمن يريد بالشعب والقضية سوءاً، فتتبرأ منهم ومن أعمالهم، وتلفظهم كما يلفظ الجسم الخبث.

لا مخرج من الأزمة أمام الشعب المحاصر في الضفة والقطاع ومن خلفه الشتات بأسره إلا أن يتعاضد أفراده واضعين جانباً النعرات الحزبية والانتماءات الفصائلية، فيمد الواحد منهم يده لأخيه، حتى يقف الجميع صفاً واحداً منيعاً في وجه الحصار ليكسروه وفي وجه التخاذل العربي الرسمي من حولهم ليعكسوه، وفي وجه التيار المتصهين ليردعوه. ولن يكون المخرج أبداً بالاستسلام للضغوط الدولية أو الاستجابة للإملاءات الأمريكية.

* مدير معهد الفكر السياسي الاسلامي في لندن

القدس العربي
يومية سياسية مستقلة
تطبع في لندن ونيويورك وفرانكفورت وتوزع في جميع انحاء العالم
الاشتراكات:
الاشتراك السنوي 450 جنيها استرلينيا في عموم بريطانيا و 750 دولارا امريكيا للوطن العربي وخارج بريطانيا بما في ذلك اجور البريد.

الناشر:
مؤسسة القدس العربي للنشر والاعلان

رئيس التحرير:
عبد الباري عطوان

المقر الرئيسي (لندن): 164/166 كنج ستريت، همرسميث، لندن دبليو 6 او كيو يو
هاتف: 8008 741 ـ 0208 (6 خطوط) ـ
فاكس: 8902 741 ـ 0208 أو 7637 748 ـ 0208
مكتب القاهرة: 43 أ شارع قصر النيل ـ الدور الاول ـ شقة رقم (2). هاتف/فاكس: 3901523(202)
مكتب المغرب: 80 شارع فال ولد عمير شقة 7 الطابق الرابع ـ الرباط. هاتف/ فاكس: 770594(37 212)
مكتب عمان: شارع الصحافة مجمع البداد التجاري الطابق الرابع.
هاتف/فاكس: 5066089 (9626)
مكتب باريس: هاتف ـ فاكس: 57364 420 (331)

Al-Quds Al-Arabi
daily Independent News Paper
Published In London, New York and Frankfurt by Al Quds Al- Arabi Publishing LTD
Circulated in Europe, Middle East, North Africa and North America.
Editor In Chief
ABDEL BARRI ATWAN

Head Office (London): 164-166 King Street, Hammersmith, London W6 0QU England
Tel: 0208-741 8008 (6 Lines) Fax: 0208-741 8902 / 748 7637
email: alquds@alquds.co.uk * Internet: www.alquds.co.uk
Cairo Office: 43 a Kasser Al Neel St, First Floor, Flat No (2).
Tel/Fax: (202) 3901523
Morocco Office: 80 Fal Ould Omeir Str. Flat No.7 - Rabat - Morocco
Tel/Fax: (212 37) 770594
Amman Office: Al Sahafa St. Badad Business Complex.
Tel/Fax: (9626) 5066089
Paris Office: Tel / Fax: (331) 420 57364